سينما — أفكار عن السينما المصرية

الانفتاح والازمة الفنية

ناهد شريف في فيلم "الحب وحده لا يكفي"

«لقد سئمنا تلك الميلودراما المبنية على ١٨ قبلة و ٧٧ أغنية .. يجب أن نعيد التفكير بالسينما العربية المصرية»

هذا ما صرح به يوسف شاهين لمكتبة السينما الجزائرية أثناء المهرجان الثقافي الأفريقي والذي أقيم في مدينة الجزائر عام ١٩٦٩ .

ان واقع السينما المصرية اليوم يدعو للأسف أكثر من أي وقت آخر ، واستعراض موجز لما تقدمه لنا السينما المصرية يعطينا صورة واضحة للأزمة الفكرية والفنية التي وصلت إليها تلك السينما .

فبين كل سبعة أفلام أنتجتها السينما المصرية في الموسم الماضي كان هناك ثلاثة أفلام يقوم ببطولتها عادل امام ، أفلام تعتمد الضحك للاضحاك ، وعلى حركات هستيرية مبالغ فيها . . ولاتقدم هدفاً فكرياً أواجتماعياً محدداً فظهرت أفلام مثل «عصابة حمادة وتوتو» ، «حب في الزنزانة» كذلك فإن صنّاع السينما المصرية استغلوا باقي نجوم المسرحية الكوميدية «مدرسة المشاغبين» وهم : يونس شلبي - سعيد صالح - حسن مصطفى - لانتاج أفلام رخيصة تعتمد على الكوميديا والجنس يضاف أحياناً اسم مطرب شعبي هابط فنياً في أغنية متداولة ، ولا غرابة إذا سمعت بعناوين أفلام من هذا النمط «تجيبها كدة .. تجيلها كدة .. هي كدة» ، «العسكري شبراوي» . و «رجل في سجن النساء» .

واستمر البعض الآخر من مخرجي السينما في تمصير الأفكار والأساليب الأجنبية لأفلام صنعتها هوليود في الأربعينات والخمسينات ولاقت نجاحات عالمية . فجاءت أعمالم ممسوخة لا هوية لها وبعيدة كل البعد عن الواقع . من هذه الأفلام «حب أحلى من الحب» اخراج حلمي رفلة والمأخوذ عن فيلم «صوت الموسيقي» .

وفيلم «مدرسة المشاغبين» المأخوذ عن فيلم «ابن سيدي الاستاذ مع حبي» إلى جانب تلك الأفلام ظهر نوع ثالث برعت فيه السينما المصرية من قبل وهو الفيلم الاستعراضي الغنائي والذي يغلب فيه الغناء والرقص على الحوار ، وليس هناك من مبرر لاخراجه الا اظهار صوت مطرب معروف كوردة في فيلم «آه يا ليل يا زمن» ولندرة الاصوات الشهيرة فقد أجهد بعض المخرجين أنفسهم في البحث عن نجمة سينمائية تجيد الرقص والغناء لتقديم فيلم من طراز «خللي بالك من زوزو» وبدأت اعلانات السينما تظهر هذا الشكل : «النجمة الفلانية ترقص .. تغني .. وتمثل .. في الفيلم الفلاني» واصبحت نيللي ونجلاء فتحي وناديا الجندي مطربات وراقصات في افلام عن الفتوات وتجار المخدرات كفيلم «الباطنية» و «وكالة البلح» .

ان الحركة الفنية الجادة التي ظهرت في نهاية الستينات والمتمثلة بجماعة السينما الجديدة ، ومجموعة من المخرجين الشباب الوافدين من المعاهد الفنية والتي اخذت على عاتقها بناء سينما مصرية معاصرة تتعمق في حركة المجتمع المصري وتحلل علاقاته وتكشف عن معنى حياة الفرد وسط هذه العلاقات فقدمت لنا افلاماً نذكر منها «اغنية على الممر» لعلي عبد الخالق . و «ظلال على الجانب الآخر» للمخرج الفلسطيني غالب شعث ، والذي يتناول الواقع المصري قبل عام ١٩٦٧ من خلال ازمة مجموعة من الشباب البورجوازين . هذه الحركة سرعان ما انهارت تحت تأثير الظروف الاقتصادية والسياسية التي طرأت على المجتمع المصري خلال السبعينات .

فالمخرج سعيد مرزوق آثر الصمت بعد ان قدم لنا «زوجتي والكلب» و «الخوف» و «المذنبون» . ولم يستسلم للمأساة . المخرج الكبير «يوسف شاهين» في فيلمه «عودة الابن الضال» ١٩٧٦ إذ لجأ إلى اسلوب الترميز (حيث ترتدي كل شخصية بعداً طبقياً ، وتاريخياً) الذي أتى أشبه بالامثولة الاخلاقية ، ليروي جانباً من الصراع على السلطة في مصر . ثم قدم فيلمه «اسكندريه ليه» وهو فيلم يتحدث عن مدينة ، عن زمن ، عن كائنات بشرية ، فيلم عن الحرب والسلام ، عن السياسة ، عن الموت .. يشير يوسف شاهين في هذا الفيلم تعاطفاً مع الشخصيات البورجوازية الصغيرة .. ومع أحلام بطله بالسفر إلى أميركا .. وفي الأسئلة العديدة التي يثيرها الفيلم حول الحرب والسلام .. لقد طرح شاهين أسئلة من أخطر الأسئلة التي طرحها سينمائي عربي ، ويوسف شاهين قدم في الموسم الماضي فيلماً هاماً ورائعاً «حدوتة مصرية» وهو تتمة للسيرة الذاتية التي بدأها بفيلمه «اسكندرية ليه» ،

وصلاح ابو سيف الذي قدم حدثاً هاماً في السينما المصرية «السقامات» سقط هو الآخر في فيلم «سقطت في بحر العسل» و «المجرم» ووقف ساكنا عن العمل لفترة ، ثم بدأ يعمل خارج مصر في افلام تثير أكثر من تساؤل وتدين صلاح ابو سيف فكرياً .

أما أشرف فهمي الذي بدأ معقولاً في «ليل وقضبان» ١٩٧١ سجل هبوطاً واضحاً في «الشيطان يعظ» ، «رجب فوق صفيح ساخن» .

ان صانع الفيلم المصري الجاد وجد نفسه في مأزق هو إما ان يصبح واحداً من فرسان السينما التجارية ، وإما ان يتوقف عن العمل ، أو المبالغة في الترميز والاغتراب في سبيل إنكار تهمة الاسفاف عنه .

فالسلطة المصرية حددت مسار السينما المصرية لتبقى اداة ترفيه وتخدير وأرغمت صناعها على السير في الطريق السهل السائغ لانه الطريق الوحيد المسموح به . فقد قامت بتصفية القطاع العام نهائياً عام ١٩٧١ ذلك القطاع الذي قدم لنا أفلاماً هامة مثل «المتمردون» لتوفيق صالح ، «الحرام» لهنري بركات ، «القاهرة ٣٠» لصلاح أبو سيف ، «البوسطجي» لحسين كمال ، «الأرض» ليوسف شاهين . كما أوقفت جميع أساليب المشاركة في الانتاج ، فلم يبق الا حفنة من التجار فهموا الواقع المصري على هواهم أو كما تملي عليهم أوامر السلطة . واستمروا في تقديم أفلام تخديرية تبعد المواطن عن مشاكله الحقيقية وتضعه ضمن احلام سيعيشها ضمن سياسات الانفتاح .. والسلام .. والمجتمع الحر ، حين قدم المخرج «كمال الشيخ» فيلمه «الصعود الى الهاوية» الذي يحكي قصة فتاة مصرية استطاعت المخابرات الاسرائيلية ان تجندها لكشف الاسرار العسكرية ، عن طريق اقناعها بانها الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام بين مصر واسرائيل !! ، ان المستوى الفني الجيد للفيلم لا يبرر النجاح الهائل للفيلم وانما السبب الاساسي يعود الى مساندة المخابرات للفيلم وقيامها ببيع التذاكر بالجملة لشركاتها ومؤسسات الدولة ، والى وجود مشهد جنسي بين فتاتين سمحت به الرقابة المصرية بينما منعت فيلماً بسبب نفس المشهد هو فيلم «جنون الشباب» اخراج خليل شوقي عام ١٩٧٢ . فالرقابة المصرية والتي اشترت قوانينها المتمثلة بالمحافظة «على الامن والنظام العام وحماية الآداب العامة ومصالح الدولة» ساري المفعول ضد أي فيلم يحلل الصراعات اليومية والتاريخية التي يعيشها المواطن المصري ، إلا إذا كانت هذه الأفلام تخدم النظام أو كانت تزعزع الثقة بثورة تموز ومهاجمة النظام الاشتراكي من خلال القطاع العام الذي يعتبر القائد الفعلي والحقيقي للاقتصاد الوطني .

لقد سقط الكثيرون في هذا المجال ، فحسين كمال صاحب التجارب الطيبة في «المستحيل» و «البوسطجي» قدم «لاشيء يهم» ، «بعيداً عن الأرض» حيث يوجه الاتهامات للنظام الاشتراكي في الأول ، وفي الثاني يقدم تبريرات للتصالح الطبقي الذي يحصل من خلال زواج شاب ذي وضع مادي جيد من طبيبة ذات وضع طبقي متواضع ولكنها تكتشف انه يخونها فتبتعد عنه الى تونس - الهروب من الوطن والابتعاد عن الارض - هكذا تستدعي الضرورة لحل المشكلات اليومية للمواطن المصري على طريقة حسين كمال ، هذا ما قدمه أيضاً بركات من خلال فيلمه «افواه وارانب» ، وعلي بدرخان الذي بدأ بداية جيدة في «الحب الذي كان» سقط في «الكرنك» حيث يرصد النضال السياسي لمجموعة من الشباب ما قبل ١٩٦٧ ، متحدثاً عن أساليب النظام في القمع . وتحدث «علي رضا» كذلك في فيلمه «وراء الشمس» عن المخابرات فيما بعد هزيمة ١٩٦٧ والأساليب التي تتبعها . وذلك من خلال قصة ميلودرامية مضطربة رأت الواقع عبر رؤية فرد واحد ، فكان فيلماً يمليه الحديث الذي تريده السلطة ولا يمليه الواقع ، وحاز على مساندة الدولة ، بينما منع فيلم «ممدوح شكري» «زائر الفجر» ولم يعرف طريقه للعرض إلا بعد موت المخرج بعامين ، وبعد اجراء تعديلات عليه وتغيير في النهاية .

أخيراً بعد تعالي الصيحات الحريصة على مستقبل السينما المصرية وقفت وزارة الثقافة المصرية لتختار قصة توفيق الحكيم «أهل الكهف» وهي قصة ذهنية لا تصلح للسينما حيث فشلت مسرحياً من قبل ، واسند اخراجها لحسن الامام تاجر السينما المعروف ، وعندما دعي مجلس الشعب المصري لبحث ازمة السينما وقف بعض اعضائه ضد أي دعم للسينما بحجة انها لا تقدم اي فكر يخدم قضايا المواطن المصري ، يتساءل ماهر السيسي وهو مخرج شاب يحمل الكثير من الطموحات : «كيف لنا أن نعمل وهؤلاء [يقصد تجار وموزعي الأفلام] هم البديل الوحيد للقطاع العام الذي كان يوفر فرصاً طيبة للشبان اصحاب الآمال الواسعة»

لقد قامت السلطة المصرية كذلك باغلاق جميع المجلات والدوريات المتخصصة في السينما والتي ساهمت في تشكيل نواة لفن سينمائي جاد بالاضافة الى دورها في تشكيل ذوق الجمهور فتوقفت معظم أقلام النقد الحقيقية او اتجهت الى الكتابة في الصحف اليومية حيث كانت محاضرة بالتعبير عن فكر النظام ، مقابل ذلك صدرت مجلات كمجلة «السينما والناس» تحاكي مجلة الكواكب من حيث رصدها لاخبار النجوم وسهراتهم وفضائحهم .. لقد بقيت معظم الافلام المصرية تدور في حلقة مفرغة من الفكر المنافق ماعدا عن بعض المحاولات التي يقدمها مخرجون شباب وسط هذه الازمة الفكرية التي تعيشها السينما المصرية والتي ساهمت السلطة بدفعها بقوة نحو هذا الاتجاه

محمد الهوا

احمد زكي في فيلم "العوامة ٧٠" لخيري بشارة

يلماز غوناي و"يوميات في السجن"

المخرج التقدمي التركي يلماز غوناي ، الذي حكمت عليه الزمرة العسكرية التركية ما مجموعة مئة عام سجن بسبب نشاطاته السياسية والفنية «المعادية للنظام» يقوم حالياً بتصوير فيلمه الجديد «يوميات السجن» في بقعة مهجورة من الريف الفرنسي . ويعتبر هذا الفيلم بمثابة تحد للزمرة الفاشية التركية الحاكمة .

والجدير ذكره أن السينمائي التقدمي التركي قد لمع عالمياً في مهرجان «كان» السينمائي ، العام الماضي ، حيث نال جائزة المهرجان الذهبية . عن فيلمه «الدرب» مناصفة مع فيلم «المفقود» لكوستا غافراس .

وقصة هروب غوناي من السجون التركية المشهورة تتلخص في أنه كان قد غادر سجنه في تركيا ، تبعاً لنظام السجون التركية الذي يعطي المسجون المحكوم عليه بالمؤبد شهراً اجازة لزيارة بلده وعائلته ، إذا كان حسن السير والسلوك . . . واستطاع غوناي ، خلال هذه الاجازة الافلات من قبضة الفاشية المتحكمة بتركيا والهرب إلى سويسرا حيث أخرج وأنتج فيلم «الدرب» المذكور ، ولمع في المهرجان ، وأصبح غوناي رمزاً سينمائياً لقضايا الحرية والديمقراطية . . . فمنذ هروبه من السجن والصحافة العالمية ترصد تحركاته ونشاطاته وبات شغلها الصحافي الشاغل ، وكذلك السلطات التركية التي سارعت مؤخراً لسحب الجنسية التركية عنه . وقد أثار غوناي ، مؤخراً ضجة كبيرة في تركيا نفسها اربكت السلطات وكان غوناي قد وصل منذ أسابيع إلى أثينا لحضور العرض الأول لفيلمه ، وكان في استقباله وزيرة الثقافة اليونانية ميلينا ميركوري والشاعر اليوناني الكبير يانيس ريتسوس . هذا ، وعرضت الوزيرة على المخرج التركي المطلوب للعدالة في أنقرة ، اللجوء السياسي في أثينا ، إلا أنه رفض شاكراً ، لأنه يريد انجاز فيلمه الجديد «يوميات السجن» في بقعة مهجورة في فرنسا . وفي هذا الفيلم يصور غوناي السجون التركية من الداخل حيث عانى شتى أساليب القمع والارهاب والتعذيب . وحول ، لأجل هذه الغاية ، أحد المباني القديمة إلى «سجن أنقرة» لكي يصور «ثورة للشباب في سجن أنقرة» - كما يقول - خلال السبعينات . وقد استقدم غوناي إلى هذا المبنى - السجن ثلاثمئة من الاتراك والمغاربة من كل أنحاء اوروبا ليصور مقتطفات فيلمه .

ويقول بعض الذين شاهدوا سير عمليات التصوير أن فيلم «يوميات السجن» سيجعل غوناي ، بعد فيلمه «القطيع» و «الدرب» من أبرز مخرجي عصرنا أصالة وقوة . وقد يشترك هذا الفيلم في مهرجان «كان» السينمائي العالمي في أيار القادم .

مشهد من فيلم «يوميات السجن» ليلماز غوناي